## 10. أهم الأحداث في عصر المماليك البرجية

**جزيرة قبرص بين الملك الأشرف شعبان والملك الأشرف برسباي :**

**تعرضت مصر في عهد الملك الأشرف شعبان لحملة من ملك قبرص بطرس الأول لوزنيان حيث حضر إلي الإسكندرية بأسطول ضخم في 9 أكتوبر سنة 1365 م وكان والي الإسكندرية في ذلك الوقت يؤدي فريضة الحج والنائب الموجود مكانه ليس علي نفس الوزن من الخبرة والدراية فلم يحسن الدفاع عن المدينة واستطاع بطرس وجيشه البقاء بها ثلاثة أيام كاملة قام خلالها بالتخريب والنهب والقتل وعندما شعر بطلائع جيوش المماليك القادمة من القاهرة فر ومن معه من الإسكندرية (وصحبوا معهم خمسة آلاف أسير وأسيرة من أهالي الإسكندرية منهم كما يقول النويري المؤرخ السكندري "المسلم والمسلمة واليهودي واليهودية والنصراني والنصرانية ")84 وعندما هرب بطرس من الإسكندرية هرب مسرعاً مرعوباً حتي أنه ألقي بعض المنهوبات التي أثقلت سفنه خوفاً عليها من الغرق (- وصدق قول النويري حيث وصفه بأنه " جاء المدينة لصاً وخرج منها لصاً -)85**

**وبعد هذا الحدث بحوالي ستين عاماً وفي عهد السلطان الأشرف برسباي الذي أرسل ثلاث حملات بحرية إلي جزيرة قبرص ( الأولي سنة 827 هـ "1424 م " والثانية سنة 828 هـ " 1425 م " والثالثة سنة 829 هـ "1426 م " )86 وفي الحملة الثالثة استطاع المماليك فتح قبرص والسيطرة عليها بالكامل بل وتم أسر ملك قبرص الذي كان في ذلك الوقت الملك جانوس الذي تم إطلاق سراحه في مقابل أن تصبح الجزيرة تابعة لمصر وتدفع الجزية ( وهكذا انتقمت مصر لنفسها من جزيرة قبرص ونجحت في القضاء علي نشاطها في مياه البحر المتوسط ، وظلت قبرص منذ ذلك الوقت تابعة للقاهرة ، وتدفع جزية سنوية حتي نهاية حكم المماليك علي يد العثمانيين سنة 1517 م )87**

**محاولات فتح رودس :**

**بعد أن سقطت جزيرة قبرص تحول بقايا الصليبيين إلي جزيرة رودس ليتخذوها قاعدة لهم محصنة للهجوم علي بلاد المسلمين وسفنهم والقيام بأعمال القرصنة البحرية ( ومما يؤكد ذلك أنه في عهد السلطان جقمق " 842-857هـ / 1438-1453م " دخلت فرع رشيد في ربيع الأول سنة 843 هـ / 1439 م أربع سفن للصليبيين حتي قاربت مدينة رشيد وأخذت أبقاراً وغيرها ثم عادت أدراجها - - - وكان من المستحيل علي دولة المماليك الجراكسة أن تقف مكتوفة الأيدي أمام القراصنة الذين اتخذوا من سواحل جزيرة رودس أوكاراً يخرجون منها للإغارة علي شواطئ مصر - - - ولذلك أراد السلطان**

---

[84] تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) صفحة 198

[85] تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) صفحة 198

[86] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة 267

[87] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة 269

جقمق إخضاع جزيرة رودس ليبسط سيادته علي مياه شرق البحر المتوسط – )[88] وأرسل جقمق ثلاث حملات لغزو رودس وكانت المقاومة شرسة وعنيدة ولكنها انتهت بتوقيع اتفاقية صلح ليتوقف القتال مقابل توقف أعمال القرصنة

سلطان مصر الأشرف إينال يستقبل رسالة من السلطان العثماني محمد الفاتح :

هو السلطان الأشرف أبو النصر سيف الدين إينال العلائي الظاهري وهو السلطان الثاني عشر من دولة المماليك البرجية الشراكسة في مصر بويع بالسلطنة في يوم الاثنين 8 ربيع أول عام 857 هـ. الموافق 19 مارس 1453م وكانت فترة حكمة لمصر والدولة المملوكية حوالي 8 سنوات ويقال أن إينال كلمة تركية من مقطعين هما: «أى» ومعناها القمر، و«نال» ومعناها شعاع أى أن اسمه يعنى «شعاع القمر« وكان قد تولّى عدة مناصب قبل السلطنة منها رأس نوبة ثاني ونائب غزة ونائب الرها في زمن السلطان برسباي عام 836 هـ ثم حضر إلى القاهرة وأصبح مقدم ألف ثم أصبح نائب صفد عام 840 هـ ثم عينه السلطان جقمق أتابكا عام 849 هـ. وكان السلطان إينال ملكا هينا لينا قليل الأذى لم يسفك دما قط بغير وجه شرعي، ينقاد للشريعة الغراء ويحب العلماء ويُعتبر من خيار ملوك الشراكسة. وكانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت تربطها علاقات طيبة مع دولة المماليك وظلت هذه الدولة القوية تحاول فتح القسطنطينية حتي تم لها ذلك في عهد السلطان العثماني محمد الثاني الذي أطلقوا عليه بعد ذلك اسم محمد الفاتح وكان ذلك في عهد السلطان المملوكي الأشرف إينال الذي وصلته رسالة من السلطان العثماني محمد الفاتح يخبره فيها بفتح القسطنطينية وهذا بعض ما جاء في رسالة محمد الفاتح إلي الأشرف إينال : ( – – إن من أحسن سنن أسلافنا رحمهم الله تعالي أنهم مجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ونحن علي تلك السنة قائمون وعلي تلك الأمنية دائمون ممتثلين بقوله تعالي {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ } (29) سورة التوبة ، ومستمسكين بقوله عليه الصلاة والسلام " من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله علي النار " فهممنا في هذا العام غممه الله بالبركة والإنعام معتصمين بحبل الله ذي الجلال والإكرام ومتمسكين بفضل الملك العلام إلي أداء فرض الغزو في الإسلام مؤتمرين بأمره تعالي {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ } (123) سورة التوبة ، وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجوراً وكفراً التي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفرها فخراً – – فمتي طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من جمادى الأولي هجمنا مثل النجوم رجوماً لجنود الشياطين سخرها الحكم الصديقي ببركة العدل الفاروقى بالضرب الحيدرى لآل عثمان من الله بالفتح قبل أن تظهر الشمس من مشرقها {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ } (45)، (46) سورة القمر )[89] وبالطبع فرح

[88] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة 270

[89] الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ( د علي محمد محمد الصلابي ) صفحة 149 ، 150

المسلمون في مصر وفي جميع أنحاء الأمة الإسلامية فرحاً عظيماً بهذا الفتح كما سعد الخليفة العباسي بذلك سعادة بالغة فكم ناصبت الدولة البيزنطية العداء للأمة الإسلامية وأذاقتها من شرورها وقام السلطان إينال بالرد علي رسالة السلطان محمد الفاتح برسالة يهنئه فيها بالفتح العظيم وجاء فيها بعض أبيات من الشعر الذي نظمه الشعراء في مصر بهذه المناسبة كان منها :

كذا فليكن في الله جل العزايم - - - وإلا فلا تجفوا الجفون الصوارم

كتائبك البحر الخضم جيادها - - - إذا ما تهدت موجه المتـلاطم

يا ناصر الإسلام يا من بغزوه - - - علي الكفر أيام الزمان المواسم[90]

وكان فتح القسطنطينية في 20 جمادى الأول سنة 857 هجرياً ( 29 مايو 1453 ميلادياً ) ومنذ هذا التاريخ لم يعد هناك وجود لما يسمي بالدولة البيزنطية[91]

## كيف حاولت مصر إنقاذ الأندلس في العصر المملوكي

( قلما نجد في صحف مصر الإسلامية ما يثير من التأثر والشجن ، قدر ما تثيره هذه المحاولة النبيلة التي بذلتها مصر لتنقذ دولة الإسلام في الأندلس ، ولقد كانت أيضاً آخر محاولة بذلتها مصر المستقلة في ميدان الدبلوماسية الإسلامية ، - - - في سنة 1489 كانت جيوش أسبانيا النصرانية - أو جيوش قشتالة وأراجون - تتقدم في قلب مملكة غرناطة آخر معقل لأسبانيا المسلمة وكانت دولة الإسلام في الأندلس قد أخذت منذ أوائل القرن السابع الهجري تنحدر بسرعة إلي هاوية الإنحلال والفناء - - - - ثم حل الصراع الأخير ، واتحدت قشتالة وأراجون علي يدى فرناندو وإيسابيلا ، واعتزمت أسبانيا النصرانية أن تقوم بضربتها الحاسمة للإسلام في الأندلس ، فتقدمت الجيوش المتحدة علي مملكة غرناطة ، وكانت أحوال غرناطة يومئذ تنذر بالويل ، وكان الخلاف الداخلي قد دب إليها ومزقتها المنافسات والمعارك الأهلية ، وشطرتها إلي شطرين يتربص كل منهما بالآخر ، أحدهما غرناطة وبعض أعمالها ويحكمها أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل ، وكان فرناندو وإيسابيلا قد شهرا الحرب علي الإسلام قبل ذلك بأعوام ، - - - وكانت أنباء الأندلس قد ذاعت يومئذ في العالم الإسلامي ، واهتز لمصابها أمراء الإسلام قاطبة ، وكان أمراء الأندلس وزعماءها يتجهون إزاء الخطر الداهم بأبصارهم إلي دول الإسلام في إفريقية ومصر وتركيا لتسعي إلي غوثهم ، وكانت سفاراتهم ورسائلهم تتري منذ أعوام علي فاس والقاهرة وقسطنطينية ، وكان سلطان مصر يومئذ الملك الأشرف قايتباي المحمودي الظاهري ، ولم تكن أحوال مصر علي ما يرام يومئذ ، فقد كان يسودها الانحلال الداخلي ، وكانت فوق ذلك تخشي الخطر يهددها من ناحية الترك ، ولكن مصر لم تنس مهمتها التاريخية في توجيه الدبلوماسية الإسلامية كلما دعيت إلي أدائها - -

---

[90] الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ( د علي محمد محمد الصلابي )صفحة 151

[91] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة 274

– ووصلت سفارة الأندلس إلي مصر في أواخر سنة 892هـ (نوفمبر سنة1487م) ، ويصف ابن إياس هذه السفارة فيما يأتي :

وفي ذي القعدة سنة 892هـ جاء قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس ، وعلي يده مكاتبه من مرسله تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعينه علي قتال الفرنج ، فإنهم أشرفوا علي أخذ غرناطة وهو في المحاصرة معهم ،-- – ومهما يكن من موقف مصر وتركيا يومئذ إزاء حوادث الأندلس فإن مصر هي التي انفردت بتلبية نداء الأندلس ، والسعي إلي إنقاذها ولم تكن أحوال مصر يومئذ مما يسمح لها بإرسال جيش أو غيره من المساعدات المادية ، إلي ميدان حرب ناء كالأندلس ، – – ذلك أن سلطان مصر الأشرف ، أجاب علي سفارة الأندلس بتوجيه سفارة مصرية إلي البابا وملوك النصرانية ، ولكنه لم يعهد بها إلي سفراء مسلمين ، وإنما عهد بها سفراء من رعاياه النصاري ، واختار لأدائها راهبين من جماعة القديس فرنسيس أحدهما القس انطونيو ميلان وعهد إليهما بكتب إلي البابا وإلي ملك نابولي ، وإلي فرناندو وإيسابيلا ملكي قشتالة وأراجون ، وفي هذه الكتب يعاتب سلطان مصر ملوك النصاري ، علي ما ينزل بأبناء دينه المسلمين في مملكة غرناطة ، وعلي توالي الاعتداء عليهم ، وغزو أراضيهم وسفك دمائهم ، ونهب أملاكهم ، في حين أن رعاياه النصاري في مصر وفي بيت المقدس ، وهم ملايين ، يتمتعون بجميع الحريات والحمايات ، آمنين علي أنفسهم وعقائدهم وأملاكهم ، ولهذا فهو يطلب إلي ملكي قشتالة وأراجون ، الكف عن هذا الاعتداء ، والرحيل عن أراضي المسلمين ، وعدم التعرض إليهم ، ورد ما أخذ من أراضيهم ، ويطلب إلي البابا وملك نابلي أن يتدخلا لدي ملكي قشتالة وأراجون ، لردهما عما يدبرانه من المشاريع لإيذاء المسلمين والبطش بهم ، هذا وإلا فإن سلطان مصر يضطر إزاء هذا العدوان ، أن يتبع نحو رعاياه النصاري سياسة التنكيل والقصاص ، ويبطش بكبار الأحبار في بيت المقدس ، ويمنع دخول النصاري كافة إلي الأراضي المقدسة )[92]،

<u>السلطان الأشرف قايتباي وبداية الاضطرابات بين الدولة المملوكية والدولة العثمانية :</u>

تولي السلطان الأشرف قايتباي حكم مصر سنة 1468 م وكان من ألمع سلاطين المماليك الذين حكموا مصر ، وفي عهده وصل إلي القاهرة الأمير (جم) العثماني أخو السلطان العثماني بايزيد ، لخلاف وقع بين الأخوين فرحب به قايتباي وأحاطه بعناية كبيرة ، فكانت هذه الحركة سبباً لإفساد العلاقات بين مصر المملوكية والدولة العثمانية ، فلم يغفر السلطان بايزيد للسلطان قايتباي إيواء الأمير جم ، ووقعت أول معركة بين الجانبين سنة 1484 م وقد انتصر فيها الأمراء المماليك ، وقد وقعت معركة أخري سنة

---

[92] نقلاًعن كتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان 1896–1986 – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة 1998 – مقتطفات من صفحة 202 وما بعدها

1486 م حيث التقي جيش مصري ضخم تحت قيادة الأمير يزبك أتابك العسكر المصري مع جيش عثماني في أقصي الشمال فهزم الجيش العثماني هزيمة ساحقة ، حتي قيل إن عدة من قتل من العثمانيين يربو علي أربعين ألفاً وقبض علي قائد الجيش العثماني أحمد هرسك واستولي علي الأعلام العثمانية ، واهتزت القاهرة لهذا النصر الكبير وأقيمت الزينات وسارت المواكب التي استعرضت فيها الأعلام العثمانية وقد وقعت مواجهة أخري بين الجانبين سنة 1487 م اشترك فيها الأسطول العثماني وكان النصر أيضاً حليف الجيش المصري ، ومن جديد ارتجت القاهرة لهذا النصر الجديد وأقيمت فيها الاحتفالات واستقر الرأي بعد مفاوضات متواصلة بين السلطان قايتباي المملوكي والسلطان بايزيد العثماني علي عقد صلح بين الملكين علي أساس أن يرسل بايزيد مفاتيح القلاع التي استولي عليها إلي مصر إشارة إلي ردها إلي ملكية مصر ،علي أن يطلق قايتباي من عنده من الأسري العثمانيين ، وتبادل السلطانان الهدايا والمجاملات الودية وهكذا فتحت صفحة جديدة من الود بين الدولتين سنة 1492م والجدير بالذكر أن العلاقات ساءت بين الدولتين مرة أخري وبلغت ذروتها في عهد كل من السلطان المملوكي الأشرف قنصوة الغوري والسلطان العثماني سليم الأول

<u>الصراع المملوكي البرتغالي حول البحر الأحمر</u>

( بدأ هذا الصراع منذ وصول البرتغاليين إلي البحار الشرقية حيث عمل كل طرف علي الاستيلاء وأسر سفن تجار الطرف الآخر بل عمل كل فريق علي العبث وإتلاف وافساد ثروات الفريق الآخر ، وعادت هذه الأعمال العدائية من جانب الطرفين بالخسارة الشديدة علي موانئ البحر الأحمر وبخاصة موانئ عدن ومخا وجدة كما تذكر المصادر المعاصرة وكثرت الاشاعات بفساد الافرنج وتعبثهم علي التجار وقد جابوا حول بندر جدة وقد قامت سياسة البرتغاليين في حقيقة الأمر منذ تلك الفترة علي أساس القضاء علي كل نفوذ تجاري للتجار العرب في –البحار– الشرقية ، ومن هنا كانت مطاردتهم للسفن العربية وإغراقها والعمل علي طرد العرب من المراكز التجارية الهندية والإفريقية منذ وصول فاسكو داجاما إلي هذه البحار حيث قام أثناء رحلته الثانية سنة 1502 بإرسال حملة مكونة من خمس سفن حربية للإقامة الدائمة عند مدخل البحر الأحمر والعمل علي مهاجمة السفن العربية ومنعها من مزاولة النشاط التجاري في مياه المحيط الهندي إلا بتصريح من البرتغاليين وفعلاً تمكن قائد هذه الحملة البرتغالية من القيام ببعض الأعمال العدائية ضد السفن التجارية العربية كما تمكن من أسر بعض البحارة العرب

وقد ازدادت حدة الحصار البرتغالي شدة حينما وصل إلي المياه الشرقية البوكيرك سنة 1506 الذي شدد من فرض الحصار البحري المفروض علي البحار العربية ومداخلها مما أضر ضرراً فادحاً باقتصاد كل من مصر واليمن والبندقية التي كانت تسعي جادة في تلك الآونة علي مقاومة الخطر البرتغالي عن طريق حث السلطان الغوري علي النهوض لمقاومة هذا العدو المشترك ، ورغم سوء الظروف الداخلية التي كانت تحيط بالسلطان الغوري فإن خطته قائمة آنذاك علي تقوية نفوذه في أقاليم البحر الأحمر

وتحصين سواحله إدراكاً منه لأهمية هذا البحر الإقتصادية والاستراتيجية بالنسبة لأملاكه في مصر والحجاز ولذا فإنه أرسل في 6 جمادي الآخرة سنة 911هـ – 4نوفمبر سنة 1505م حملة بحرية تحت قيادة حسين الكردي من ميناء السويس ووجهتها الهند علي أن تعمل في نفس الوقت علي تحصين ميناء جدة استعداداً لمواجهة أي خطر برتغالي في المستقبل لمهاجمة الأماكن المقدسة ، ولذا فإن الحملة زودت بالفنيين اللازمين للقيام بهذه التحصينات ، وقد أقام هؤلاء الفنيون فعلاً بعض الاستحكامات في هذا الميناء ثم اتجهت الحملة إلي موانئ اليمن الواقعة علي البحر الأحمر مثل قمر بجيزان وجزيرة كمران ثم اتجهت إلي مخا فعدن حيث ذكر الأمير حسين الكردي قائد الحملة لحاكم عدن الطاهري أن الحملة تستهدف الذهاب إلي الهند لمحاربة البرتغاليين فأمده حاكم عدن بما يشاء من طعام ومؤن ومع أن الحملة تمكنت حينما وصلت إلي "ديو" من التحالف مع بعض الإمارات الهندية وإحراز انتصارات جزئية علي القوي البرتغالية إلا أن الهزيمة حلت بها في النهاية ولم تحقق الهدف المرجو منها ومنذ تلك الآونة ازداد اقتراب الخطر البرتغالي إلي مداخل البحر الأحمر)[93]

**وصف المؤرخ ابن اياس الحنفي لمعركة مرج دابق :**

التي وقعت في 24أغسطس سنة1516م في شمال سوريا بين المماليك بقيادة السلطان الأشرف قنصوة الغوري والعثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول : ( في يوم الخميس رابع عشره ورد علي السلطان مطالعة94 من عند سيباي نائب الشام وقد بلغه حركة سفر السلطان من مصر إلي البلاد الشامية فأرسل يقول له : يا مولانا السلطان إن البلاد الشامية مغلية والعليق والتبن ما يوجد والزرع في الأرض لم يحصد ولا ثم عدو متحرك فلا يتعب السلطان سره ولا يسافر وإن كان ثم عدو متحرك فنحن له كفاية – – فلم يلتفت السلطان إلي كلامه واستمر باقياً علي حركة السفر إلي حلب )95

( وفي يوم الأربعاء ويوم الخميس أنفق السلطان علي المماليك بقية النفقة – – وفي يوم السبت ثالث عشرينه أكمل السلطان النفقة علي المماليك قاطبة من قرانصة وجلبان ونادي لهم في الحوش أن السفر أول الشهر فاضطرب أحوال المماليك وارتجت القاهرة وعز وجود الخيل والبغال ، وصارت المماليك يهجمون الطواحين ويأخذون منها الخيول والبغال والأكاديش ، فغلقت الطواحين قاطبة وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق ووقع القحط بين الناس وضج العوام وكثر الدعاء علي السلطان )96

( وفي يوم السبت سادس عشر شعبان 922 هـ أشيعت هذه الكاينة العظيمة التي طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار ، فلما خرج السلطان من حلب توجه إلي حيلان فبات بها فلما أصبح يوم الأربعاء حادي

---

[93] من كتاب ( فصول من تاريخ مصر الإقتصادي والإجتماعي في العصر العثماني ) د عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم – من سلسلة كتب (تاريخ المصريين) رقم 38 – الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة سنة 1990 صفحة 121 وما بعدها

[94] مطالعة = رسالة مكتوبة

[95] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور ( ابن إياس الحنفي )صفحة 19

[96] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور ( ابن إياس الحنفي )صفحة 20

عشرين رجب رحل السلطان من حيلان وتوجه إلي مرج دابق فأقام به إلي يوم الأحد خامس عشرين رجب وهو يوم نحس مستمر فما يشعر إلا وقد دهمته عساكر سليم شاه بن عثمان – – فقيل أول من برز للقتال الأتابكي سودون العجمي وملك الأمراء سيباي نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان ، فقاتلوا قتالاً شديداً هم وجماعة من النواب فهزموا العثمانيين وكسروهم كسرة مهولة وأخذوا منهم سبعة صناجق – – فهم ابن عثمان بالهروب أو يطلب الأمان وكانت النصرة للمماليك أولاً وياليت لو تم ذلك ، ثم بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال لمماليكه الجلبان لا تقاتلوا شي وخلوا المماليك القرانصة تقاتل وحدهم فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال ، فبينما هم علي ذلك وإذا بالأتابكي سودون العجمي قد قتل في المعركة وقتل ملك الأمراء سيباي97 بك نائب الشام فانهزم من في الميمنة من المماليك ثم إن خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة – – ويقال إن خاير بك كان موالساً علي السلطان في الباطن وهو مع ابن عثمان علي السلطان وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد فكان أول من هرب هو قبل المماليك قاطبة وكان ذلك خذلاناً من الله تعالي للمماليك حتي نفذ القضاء والقدر – –

وانعقد بين العسكرين غباراً حتي صار لا يري بعضهم بعضاً وكان نهار غضب من الله تعالي قد انصب علي المماليك وغلت أيديهم عن القتال )98 ( وقد أقامت هذه الوقعة من طلوع الشمس إلي بعد الظهر وانتهي الحال علي أمر قدره الله تعالي فقتل في تلك الساعة من العثمانيين ومن المماليك ما لا يحصي عدده )99 ومات الغوري في المعركة من شدة القهر بعد أن طلب من المماليك القتال وقال لهم ( هذا وقت المروءة هذا وقت النجدة فأخذ يستغيث فلم يسمع له أحد ، ويروي أن الغوري عندما رأي جيشه يفر من أمام عينيه وتحقق من الهزيمة أصيب بالشلل وطلب جرعة من الماء فجاءوا له بها ولكنه لم يتمالك نفسه وهوي من فوق صهوة فرسه ميتاً وداسته الخيل )100 والغريب أنه لم يعثر له علي جثة بعد المعركة ، واستمر سليم الأول يزحف بجيشه نحو مصر ويضم إليه كل ما يقابله من بلاد

وعندما تأكدت وفاة السلطان الغوري طلب الأمراء المماليك من الأمير طومان باي أن يتولى السلطنة

## ملك الأمراء خاير بك الذي أصبح خاين بك

كان الأمير خاير بك نائب حلب للسلطان الأشرف قنصوة الغوري وعندما وقعت معركة مرج دابق في شمال سوريا بين السلطان الغوري والسلطان العثماني سليم الأول ، تولي خاير بك قيادة الميسرة في جيش الغوري ولكنه كان علي اتفاق مع السلطان العثماني ضد السلطان الغوري ، فانسحب بميسرة الجيش أثناء المعركة بدون مبرر وكان ذلك من أهم عوامل هزيمة جيش مصر في معركة مرج دابق

---

[97] كان نائب الشام سيباي بك قائد الميمنة بينما كان خاير بك نائب حلب هو قائد الميسرة وقد تم قتل سيباي بك أثناء القتال وانسحب خاير بك بدون سبب أثناء المعركة وهناك من أوقع الخلاف بين المماليك القرانصة والمماليك الجلبان في أحرج مواقف المعركة

[98] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور ( ابن إياس الحنفي ) صفحة 35 ، 36

[99] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور ( ابن إياس الحنفي ) صفحة 38

[100] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة 280

أمام الجيش العثماني ، والذي ترتب عليها بعد ذلك ضم مصر للحكم العثماني وعن خيانة الأمير خاير بك يقول المؤرخ ابن إياس الحنفي في كتابه ( بدائع الزهور في وقائع الدهور ) : ( وممن كان موالساً علي السلطان في الباطن خاير بك نائب حلب ، فإنه أول من كسر عسكر السلطان ، وانهزم عن ميسرته ، وتوجه إلي حماه ، ولما ملك ابن عثمان حلب أرسل خلفه ، فلما حضر إليه خلع عليه وصار من جملة أمرائه ، ولبس زي التراكمة ، وقص ذقنه وسماه السلطان العثماني " خاين بك " لكونه خان سلطانه وطاع ابن عثمان ، فلما جري ذلك تسحبت مماليك خاير بك ، وتوجهوا إلي مصر ، ودخل هو تحت طاعة ابن عثمان )

## عندما تم شنق سلطان مصر علي باب زويلة

إنه طومان باي الذي أجمع معظم المؤرخون أنه كان سلطاناً عالي الهمة وقليل الأذى للرعية ، وقد كان السلطان الغوري قد عينه نائباً له في مصر قبل أن يتجه إلي لقاء العثمانيين في مرج دابق بشمال سوريا ، وعندما تأكدت وفاة الغوري خلال المعركة طلب الأمراء في مصر من طومان باي أن يتولى السلطنة ،( ولقد تمنع طومان باي عن قبول السلطنة مدة خمسين يوماً إلا أنه قبلها بعد ذلك تحت ضغط )101 ، ( وحين تولي طومان باي السلطنة كانت البلاد في أقصي درجات التدهور والدولة المملوكية في آخر رمق ، نتيجة لعوامل متعددة ، إذ قد استشري الفساد في كيان الدولة المملوكية – – وكأنها حتمية النهاية ، ولم يعد هناك أي أمل في استنقاذها )102 وبالرغم من كل هذه المعوقات حاول طومان باي أن يستعد للحرب الحتمية ( بينما رفض أن يأخذ أموال الناس قهراً أو من أي سبيل حتي لا تحدث في أيامه مظلمة أبداً )103 وكتب ابن إياس ( فلما كان يوم الخميس تاسع عشرين ذي الحجة فيه وقعت كاينة عظيمة تذهل عند سماعها عقول أولي الألباب وتضل لهولها الآراء عن الصواب )104 ، ( زحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله إلي الجبل الأحمر فلما بلغ السلطان طومان باي ذلك زعق النفير في الوطاق ونادي السلطان للعسكر بالخروج إلي قتال عسكر ابن عثمان – – فركبت الأمراء المقدمون ودقوا الطبول حربياً وركب العسكر قاطبة حتي سد الفضاء وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر وهم السواد الأعظم فتلاقي الجيشان في أوائل الريدانية فكان بين الفريقين وقعة مهولة يطول شرحها أعظم من الوقعة التي كانت في مرج دابق – – حتي انكسر عسكر مصر وولي مدبراً ، فثبت

---

[101] طومان باي آخر سلاطين المماليك ( د عبد المنعم ماجد ) صفحة 41

[102] طومان باي آخر سلاطين المماليك ( د عبد المنعم ماجد ) صفحة 53

[103] طومان باي آخر سلاطين المماليك ( د عبد المنعم ماجد ) صفحة 59

[104] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور ( ابن إياس الحنفي ) صفحة 80 ولاحظ معي أسلوب ابن إياس في وصف المصيبة التي حلت بسلطان مصر ويبدو أن الحنفي كان مؤرخ وشاعر ومثقف وعلي قدر عالي من الوعي وله أسلوب شيق في الكتابة

بعد الكسرة السلطان طومان باي – – وهو يقاتل بنفسه في نفر قليل من الرماة والمماليك السلحدارية)105 ، وانتهت معركة الريدانية بهزيمة ساحقة للمماليك ودخل سليم الأول مصر منتصراً وكتب ابن إياس ( فاستمر السلطان طومان باي – يقع – مع عسكر ابن عثمان ويقتل منهم في كل يوم ما لا يحصي عددهم – – فرأى عين الغلب وقد تكاسل العسكر عن القتال واختفوا في بيوتهم وتفرقت الأمراء واستمر السلطان يقاتل وحده بمفرده في نفر قليل – – وكان قليل الحظ غير مسعود الحركات في أفعاله فكان كما يقال : )106

قليل الحظ ليس له دواء – – – ولو كان المسيح له طبيب

( – وكان السلطان ، كلما رام أن ينتصر علي ابن عثمان ينعكس فكان كما يقال في المعني )107

إذا لم يكن عون من الله للفتي – – – فأول ما يجني عليه اجتهاده

فكان من الطبيعي أن يختفي السلطان طومان باي بعد أن تفرق المماليك من حوله وبدا له مما لا يدع مجالاً للشك مدي تكاسلهم عن القتال فذهب طومان باي إلي بعض من يثق به من معارفه ولكن للأسف تم العثور عليه ولم يصدق الناس خبر القبض علي السلطان طومان باي فأمر السلطان سليم الأول بشنقه علي باب زويلة حيث اعتاد الحكام شنق القتلة وقاطعي الطرق ( – فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف فإنه كان شاباً حسن الشكل سنه نحو أربع وأربعين سنة وكان شجاعاً بطلاً تصدي لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب وحده بنفسه ، وكان ملكاً حليماً قليل الأذى كثير الخير وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً ، وكان في هذه المدة في غاية التعب والنكد وقاسي شدائد ومحناً وحروباً وشروراً وهجاجاً من البلدان وآخر الأمر شنق علي باب زويلة وأقام ثلاثة أيام وهو معلق علي الباب حتي جافت رائحته – – وفي اليوم الثالث أنزلوه فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ومضت أخباره كأن لم يكن )108

ويري الكاتب الساخر الكبير محمود السعدني أن (التي تدلت من الحبل لم تكن جثة طومان باي ولكنها كانت في الحقيقة جثة مصر ، ولقد ماتت قروناً طويلة قبل أن يكتب لها البعث من جديد وجاء السلطان العثمانلي ودخلت مصر في سرداب التاريخ وتحولت من سلطنة إلي ولاية وخيم عليها الظلام وأصابها الضمور وإذا كان السلطان العثمانلي قد قطع رأس سلطان المماليك فقد أبقي علي المماليك أنفسهم ، ولم يلبث هؤلاء أن تزيوا بزي العثمانلي ورطنوا بلسانه واشتغلوا تحت رايته )109

---

[105] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور ( ابن إياس الحنفي ) صفحة 82

[106] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور ( ابن إياس الحنفي ) صفحة 92

[107] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور ( ابن إياس الحنفي ) صفحة 106

[108] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور ( ابن إياس الحنفي )صفحة 111

[109] مصر من تاني ( محمود السعدني ) صفحة 67